نحن خمسة فى هذا العالم

نحن خمسة ليس لنا سادس ، قد افترقنا منذ أكثر من مليون أو مليونى سنة . ولكنا ما زلنا نذكر قرابتنا وندلّ عليها بالوجوه وسائر الأعضاء ، وكذلك بالأخلاق والاتجاهات الذهنية أو العاطفية .

نحن البشر ، ثم الشمبنزى ، ثم الغوريلا ، ثم الأورانج ، ثم الجيبون .

وليس لنا سادس . نحن خمسة نتسم بوجوه بشرية وبأذناب متقلصة قد اندغمت فى ظهورنا حتى صارت لا تبرز كأننا لم نكن قط بأذناب . وقد عشنا آلاف القرون على الأشجار . ونحن البشر مع الغوريلا قد تركنا الأشجار ونزلنا على اليابسة . ولكن صغار الغوريلا لاتزال إلى الآن ، إذا أظلم الليل ، تصعد إلى غصون الشجر وتنام عليها . أما آباء هؤلاء الصغار فتبقى على الأرض تحت جذوع الشجر ولا تصعد . أما الشمبنزى فلا يزال يساوى بين الشجر والأرض ، ساعة هنا وساعة هناك . أما الجيبون فلا يزال يتعصب للشجر ولا يكاد يتركه . ولكن الأورانج ينزل من وقت لآخر ويسير على الأرض .

ونحن والجيبون طرفان . نحن نتعصب للأرض ولا يكاد أحدنا يفكر فى الصعود إلى أغصان الشجر سوى صبياننا للعب والعبث . وفى الطرف الآخر الجيبون الذى يتعصب للشجر . وهو بهلوان يذرع الغصون بذراعيه بنفس السهولة التى نسير نحن بها على الأرض . حركته تتبلور فى ذراعيه كما تتبلور حركتنا فى ساقينا .

والجيبون هو صرخة نائية فى قرابتنا التطورية . ولكن هناك ما هو أنأى.

ذلك أننا قبل أن نكون خمسة كنا عشرات بل ربما كنا مئات نتفرق فى القارات القديمة ونعيش على الأشجار . وكانت أجسامنا صغيرة ؛ لأن الحيوان الضخم يجد أن الغصون لا تتحمله ولذلك سرعان ما ينزل إلى الأرض . ألا ترى أن اثنين من هؤلاء الخمسة ، وهما الانسان والغوريلا ، قد تركا الشجر

واستقر أحدهما على الأرض وكاد الثانى أن يستقر ؟ والأورانج يكاد يساوى الانسان فى الثقل ، ولكنه لا يزال يلتزم الشجر لأن قدميه لا تليقان للمشى ، كما سنرى .

قبل نحو عشرين أو ثلاثين مليون سنة كنا قد بدأنا حياة جديدة على هذا الكوكب . وكنا قد اهتدينا إلى اختراع جديد نمتاز به على تلك الزواحف الضخمة التى كانت وباء على العالم . ذلك أننا كنا نلد ولا نبيض . فكانت الحراسة ثم العناية بالأطفال كبيرتين . وفى الوقت الذى كانت تنقرض فيه الزواحف لأن بيضها لا يجد الحراسة كنا نحن نعيش وننازعها البقاء لأننا كنا نعنى بالأطفال ونحرسها .

وكنا صغاراً فى الحجم نترجح من وزن الفأر إلى وزن الثعلب . وقد لجأنا إلى الأشجار كى نفرّ من هذه الزواحف الضخمة . وكانت خفة أجسامنا تساعدنا على الفرار . حتى إذا بدأت هذه الزواحف فى التناقص ثم الانقراض ، شرع بعضنا يجد أن الأرض مأمونة وأنه يستطيع النزول حيث يسعى فى حرية والطلاق ، فكانت أسلاف الحيوانات الجديدة المتخصصة كالفيلة والخيل والكلاب والبقر .

أما نحن فبقينا صغاراً فى حجم الفأر أو القط . ولا يزال الليمور فى أيامنا ثم الطرسير ، يصرخان بنا عبر الملايين من السنين إلى الأصل الوضيع الذى نشأنا منه . وكلاهما من حيوانات الليل التى تفتح أعينها فى الظلام وتحاول النظر فى الغبشة والعتمة . ولذلك تجمعت العينان عندهما فى الوجه دون الصدغين كما هو الشأن فى سائر الحيوان . وإلى الآن نرى أن البومة والوطواط قد اجتمعت العينان لكل منهما فى الوجه . فكل منهما ينظر بعينين فى وقت معاً ، فى حين أن سائر الحيوانات النهارية ، أى التى تسعى فى النهار طيراً كانت أو لبونات ، تقنع بالرؤية بعين واحدة فى الصدغ .

ولهذا السبب نجد بيننا وبين البومة وكذلك الوطواط شبهاً مزعجاً نكرهه وننفر منه . وأصله هو هذا الجمع بين العينين فى الوجه فنحن الخمسة وكذلك الطرسير والليمور ثم كذلك البومة والوطواط ، من حيوانات الليل ، قد احتجنا إلى الدقة و إحكام الرؤية ، فجمعنا العينين فى الوجه حتى ننظر الأشياء بهما معاً لا بعين واحدة .

والاقامة على الشجر تستدعى اليقظة فى الليل كثيراً . ويبدو أننا أسرفنا فى هذه الاقامة حتى صار السعى فى الليل دون النهار عادتنا . فكان هذا التخصص فى النظر ، فى حين أن سائر الحيوانات ، أسلاف الكلاب والقطط والفيلة والبقر ، تركت الشجر قبل أن تتخصص . فبقيت عيونها جانبية أى بقى كل منها « أعور » ينظر بعين واحدة كما كانت تفعل الزواحف الكبرى . أما نحن فلم نترك الشجر إلا بعد أن تخصصنا . ومع ذلك لم يترك الشجر تماماً غيرنا نحن البشر . أما سائر الأربعة فلم تتركها تماما إلى الآن . حتى الغوريلا لا تزال تسمح لأولادها بالتسلق والنوم على الغصون فى الليل .

وهناك ما يرجح أن جميع اللبونات (التى ترضع أطفالها) نشأت أولا على الشجر ، وكانت صغيرة الأحجام تتحملها الغصون فى تنقلها ووثبها . ولم يكن مفرّ من هذا ؛ لأن الزواحف الكبرى ، التى كان العالم موبوءاً بها فى كل مكان . كانت تحول دون ظهور اللبونات على الأرض . ولا تزال الأحافير القديمة التى ينتمى إليها الفيل والفرس صغيرة الحجم . فالفيل القديم، وقد وجد فى الفيوم ، لا يزيد على حجم الحمار . والفرس القديم ، وقد وجد فى أمريكا ، لا يزيد على حجم الفأر . أى إن اللبونات الضخمة كانت فى الأصل صغيرة لأنها كانت تعيش على الشجر . ولكنها لم تبق ، مثلنا ، المدة الكافية لأن تجمع عينيها فى وجوهها ولأن تتخصص أيديها للتناول .

ونزلنا صغاراً من الشجر ، وقد كسبنا من الاقامة عليه عينى الوجه وكذلك اليد . فلما استقر بنا المقام على الأرض كبرت جثتنا كما كبرت جثة الغوريلا الذى لا يصعد على الشجر سوى صغاره . وأيضا ، لأننا صرنا نتناول باليد ، استغنينا عن الذنب . بل ربما كنا استغنينا عنه قبل النزول إلى الأرض ؛ لأن هذا هو الشأن حتى فى الجيبون الذى يسلك سلوك البهلوان على الغصون ، والذى نظن أن لذلك كان يجب أنه يحتاج إلى الذنب . ولكن المرجح أن الأيدى، قد قامت مقام الأذناب حتى ونحن على الشجر .

والفرق بيننا وبين الأربعة الأخرى أننا لم نتخصص مثلها على الاقامة فى الشجر ، حتى الغوريلا التى تركت الشجر الآن قد تركته متأخرة ؛ لأن قدميها لا تصلحان للسير كما تصلح أقدامنا . ولأن إبهام القدم يواجه الأصابع ولا يستوى معها فى صف كما هى الحال عندنا .

وأبعد الخمسة منا . وهو الصرخة النائية لحياة قديمة اشتركنا فيها ، هو الجيبون . وهو آسيوى يعيش فى الأقاليم الشرقية الجنوبية من آسيا وكذلك فى سومطرة وبورنيو . وهو يختلف عن الأربعة الأخرى من حيث إن له صوفاً بدلا من الشعر الذى نتسم به . وكذلك يتسم هو بتضخم استى كما هو الشأن فى بعض القردة . ولكن من الباحثين من يقول إن هذا التضخم الاستى عام بين الخمسة حتى الانسان . وإن الفرق بينها درجى فقط . وبشرته سوداء مثل الزنوج . ومن هنا يجب أن نشك فى قيمة الضوء من حيث إنه الأصل فى البشرة السوداء . لأن هذا الجيبون يكسو بشرته صوف يحميها من الضوء . ومع ذلك هى سوداء . ولا بد أن هناك أسباباً أخرى لسواد البشرة عند زنوج البشر وعند الجيبون .

والجيبون هو أصغرنا جميعا من حيث الوزن والقامة . فان قامته لا تزيد على تسعين سنتيمتراً . وهو ضامر البطن . ونحن الأربعة ، بالمقارنة به ، نعدّ مستكرشين . وهو أبرعنا فى الانتقال بذراعيه كما نحن أبرع الخمسة فى الانتقال بالساقين . وهو حين يتعلق بالغصون لا يستعمل إبهامه ، بل أحيانا يقنع باستعمال إصبعين للتعلق كأن إصبعه خطاف . ولذلك هو لا يقبض على الغصن ولكنه يتعلق بانحناء خطافى فى الأصابع . وأنيابه طويلة مؤلمة بخلاف الحال عند الأربعة الأخرى ؛ لأن الأنياب عندها قصيرة مسحاء لا تنتهى بابرة حادة . وهو ألوف ، ولكنه عند ما يعاشرنا لا يتمالك من الاختلاس لأن ذكاءه يتجاوز أمانته .

ووطنه الأعم هو الشجر الذى لا يتركه سوى ساعة أو ساعتين فى النهار . وهو حين يمشى ينتصب على قدميه .

أما ثانى الخمسة فهو الأورانج الذى يعيش فى سومطرة وبورنيو فى الأقاليم التى يعيش فيها الجيبون . هو الحيوان الانفرادى بيننا نحن الخمسة ؛ لأننا اجتماعيون نعيش كلنا جماعات إلا الأورانج فانه ينفرد على الشجرة . وأنفه وفمه يبرزان ، وشعره أحمر ، ولكن لحيته بطريركية سابلة برتقالية اللون . وهو يسير على الأرض فى بطء وحذر . وهذا لان إبهام قدمه الذى يخلو من الظفر أحيانا يواجه أصابعها أى إن قدمه مثل يده . وذراعاه طويلتان وساقاه قصيرتان بعكس الحال عندنا نحن البشر . وبين قواعد أصابعه أغشية .

وأصابعه لا تقبض على الغصن ولكنها تتعلق به كالخطاف كما يفعل الجيبون . وصغار الأورانج كصغار البشر تتعلق وتتدلل وتصيح وراء الأم . بل هنا يجب ألا يفوتنا أن صغارنا نحن الخمسة تتشابه كثيراً فى تفاصيل الجسم والوجه والأخلاق .

وكل من الأورانج والجيبون يتناول الماء بيده ثم يشرب من يده أى إنهما لا يلعقان . ودماغ الأورانج لا يختلف عن دماغ الانسان إلا من حيث الحجم .

أما ثالثنا فهو الغوريلا . ووطنه هو أفريقيا ، فى الأقاليم الغبياء من الكونجو. وهو أثقلنا ، إذ يبلغ وزنه ٥٠٠ أو ٦٠٠ رطل . وهو شجرى ما دام فى طفولته وصباه ، فاذا كبر لم يكد يعرف الشجر . وهو فى الوجه من حيث حركة الأعضاء ولحظ العين بشرى السحنة . وقدمه مستوية . وهو حين يعدو يتساوى مع الانسان فى السرعة أو يكاد يسبقه . وهو حين يقعد يأكل كل ما حوله من أوراق الشجر . ولذلك كان بطنه ضخما كأنه بهيم. وهو يسير جماعات كل ٢٠ أو ٣٠ معاً . وعند ما يقعد ليستريح على أليتيه يضم ذراعيه مكتوفتين على صدره . وهو ينام على ظهره أو جنبه ويتوسد ذراعه . وهو مثل الأورانج يثبت للخصم ولا يفر .

أما الشمبنزى ، وهو أقرب الخمسة إلينا نحن البشر ، فيستوى عنده الشجر والأرض . إذ هو يتسلق كما يمشى . وهو أفريقى مثل الغوريلا . وهو ينتصب فى القامة أو يكاد . ولذلك يتعلم الانزلاج ويمارسه فى طرب وخفة . ويعيش مثل الغوريلا فى غابات أفريقيا الغربية . وهو يسير جماعات كل منها نحو ثمانية أوعشرة . ويأكل الفواكه ، ولا يبالى أن يعيش بجوار القرى ، ولكنه إذا أحس أن أحداً يتجسس عليه ترك مكانه إلى آخر . ولا يزيد وزنه على مائة رطل. وهو بالمقارنة إلى الأورانج يعد انبساطيا يفرح بالاجتماع ويلعب وينشط إلى المرح بخلاف الأورانج الذى يعد انطوائيا يعيش منفرداً ولا يكاد يعرف معنى للمؤانسة . والشمبنزى سريع إلى التعلم ؛ فهيم يتناول طعامه بالملعقة ، وعند ما يعاشرنا يكتسب منا أخلاقاً بشرية ؛ فان الندم يبدو عليه عند ما يخطئ عمداً أو عفواً . ولكنه عند ما يسن يؤثر الانفراد ويتجنب المزاح . وكثيراً ما يصلع ، فيتخذ سحنة بشرية بهذا الصلع .

أما نحن البشر فنختلف الاختلاف الأكبر عن هذه الأربعة المتقدمة من حيث إن حجم الدماغ عندنا أكبر مما هو عندها . وأيضاً من حيث إن ابهام اليد تواجه الأصابع ولذلك نحسن القبض والتناول أكثر منها . وقد تركنا الشجر تركاً تاما ، ولا يقاربنا فى هذا سوى الغوريلا . والقدم عندنا مقنطرة نمشى على أرساغنا ثم نندفع فوق أصابعنا ، فى حين أن أقدام الأربعة الأخرى مسطحة . ولذلك لا يسهل عليها المشى كما يسهل علينا . لكن أذرعتنا لا تزال طويلة . مما يدل على أننا عشنا كثيراً على الشجر . ودماغنا يكبر دماغ الغوريلا بثلاثة أضعاف . ويجب ألا ننسى أن القامة المنتصبة العمودية عندنا هى التى هيأت لنا حمل هذا الدماغ الثقيل ؛ لأننا نحمله حملا عمودياً فلا يرهقنا . ولم نكن نستطيع أن نحمله لو كنا نمشى على أربع . والفم والأنف يتراجعان عندنا ؛ لأن اليد تقوم بالتناول بدلا من الفم . والأنف أصبح صغير القيمة لأن العين جعلتنا نستغنى بالنظر — أو نكاد — عن الشم . وزيادة الحجم فى نظر الطبيعة ليست ذات قيمة كبيرة ، كما ترى هذا إذا اعتبرت الكلاب ؛ فان بينها كلب سان برنار الذى يزيد وزنه على ثلاثين رطلا ، وكلب لولو الذى قد لا يبلغ رطلا أو رطلين . ودماغنا ، وهو أعظم ما يميزنا من هذه الأربعة الأخرى ، يزيد ثلاثة أضعاف ما هو عند الغوريلا أو الأورانج أو الشمبنزى . وليس هذا شيئاً عظيما ؛ لأننا والأورانج سواء من حيث التشريح المخى بلا أدنى اختلاف .

ولنا جميعاً وجوه متشابهة . فنحن الخمسة نبدو للعالم بوجوه تتشابه لأن العينين تتقاربان ، ولنا أيد للتناول . وجميعنا قد استغنينا عن الأذناب ، ولكن ما تبقى من الذنب عندنا أكبر مما تبقى منه عند الأربعة الأخرى ، وجميعنا نمشى على أقدامنا بفروق . بعضنا قد ترك الشجر بعض الوقت ، وأحدنا (نحن) قد ترك الشجر كل الوقت .

قال هوكسلى : « إن الانسان يشبه هذه الأربعة الأخرى ، كما يشبه كل واحد منها الآخر . وهو يختلف عنها كما يختلف كل واحد منها عن الآخر » ثم يقول : « إن الفروق الجسمية التى تفصل الانسان من الغوريلا والشمبنزى ليست عظيمة إلى الحد الذى تبلغه الفروق بين القردة العليا والقردة الدنيا » .

والفروق بين البشر كبيرة ؛ فان أنف الزنجى الأفطس وأنف السويدى

الأشم يختلفان اختلافا عظيما . وكذلك بشرة الزنجى السوداء وبشرة الأوربى البيضاء قد أحدث الاختلاف بينهما استعباد الثانى للأول آلافاً من السنين . والصينى أملط أو يكاد ، والأوربى شعرانى . وأحياناً نجد على بعض الأجسام البشرية زغبا صوفيا ، يكثر فى فرنسا وإيطاليا بين الفتيات له لمسة حريرية جاذبة وحبذا الانسان يعود فيكتسى بهذا الصوف الناعم ويستغنى به عن الملابس . وبعض هذه الفروق يمكن تعليله بالمناخ . مثال ذلك أن السويدى أو النروجى الذى يعيش فى مناخ بارد بالقرب من القطب يجب أن يكبر أنفه وتضيق المسالك الداخلية فيه حتى لا يفجأ الهواء البارد رئتيه . أما الزنجى الذى يعيش فى أفريقيا الحارة فينفطس أنفه وتتسع مسالكه الداخلية حتى يجتازها الهواء بسرعة وبلا عائق . والهواء الحار يتمدد فيحتاج الزنجى كى يحصل على حاجته من الاكسيجين إلى مقدار من الهواء يزيد على المقدار الذى يحصل عليه الأوربى .

ولكن مع جميع هذه الاختلافات بيننا نحن البشر ما زلنا نوعاً واحداً يتفرع إلى سلالات عدة يتم بينها التلاقح ولا يؤدى إلى نسل من « البغال » العقيمة .

والفروق بيننا وبين القردة الأربعة الأخرى كبيرة . وأهمها بالطبع هو المخ . ولكن هذا المخ ما كان ليصل إلى ضخامته الحاضرة بل ما كان لينمو فى الذكاء لولا اللغة التى جعلت التفكير الدقيق ممكناً ولولا اليد التى جعلت الحضارة ممكنة بما لها من إبهام يجيد التناول . فميزتنا الكبرى على القردة الأربعة الأخرى هى اللغة ، واليد .

سلامة موسى